ماهية القصة القرآنيّة وأنواعها:

بحث مستلّ من كتاب القرآن و الشعر

د دلال عبّاس

القصة القرآنيّة، إمّا تاريخيّةٌ، لأحداثها وشخصيّاتها وجود واقعيّ في التـــاريخ، رُوِيَـــت للعبرة، أو واقعيةٌ، تقدّم أنموذجًا من أحوال البشر سواء حدثت في الواقع أو أنّها ممكنة الحدوث، فمن الأحداث الواقعيّة التي أشار إليها القرآن ما حدث في عصر النبيّ: كقصّة معركة بـــدر في سورة الأنفال ومعركتيْ أحد وحمراء الأسد في سورة آل عمران ومعركة الخنـــدق في ســـورة الأحزاب وصلح الحديبيّة في سورة الفتح، وقصّة الإفك في سورة النور. وهنالك بعض القصص القرآنيّة لها طابع تمثيليّ أو رمزيّ، تُضرب مثلاً، ويمكن أن تحدث في أيّ زمان ومكان، كقصّة صاحب الجنّتين في سورة الكهف، وأصحاب الجنَّة في سورة القَلَم، فالبنية التفصيليّة لكلٍّ مـــن هاتين القصّتين ومضامينها وحوادثها تشير إلى أنّها قصّة واقعيّة، لا مانع من حدوثها في الماضي أو الحاضر أو المستقبل؛ ذكرها القرآن مثلاً وعبرة.

على الرغم من أنّ القصّة القرآنيّة الواحدة ذات الأصل الواقعي الواحـــد تـــرد أحيانًـــا بأشكال مختلفة، فإنّ ذلك لا يعني تعدّد الوقائع، وإنّما يأتي ذلك تعبيرًا عن الانعكاسات الذهنيّة لشخصيّات القصّة، وتختلف الألفاظ أحيانًا باختلاف الأحوال والظروف والحالـــة الذهنيّـــة: لنلاحظ ما جاء في قصّة موسى أنموذجًا: المقطع الأول:

1) إذ رأى نارًا فقال لأهله امكثوا إنّي آنست نارًا لعليّ آتيكم منها بقيسٍ أو أجد على النار هدىً[1].

2) إذ قال موسى لأهله إنّي رأيت نارًا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهابٍ قبسٍ لعلّكم تصطلون[2].

3) قال لأهله امكثوا إنّي آنست نارًا لعلّي آتيكم منها بخبرٍ أو جَذْوةٍ من النار لعلّكم تصطلون[3].

الثابت الذي لم يتغيّر في ما ورد، أنّ موسى طلب إلى أهله الانتظار حين رأى النار من بعيد [امكثوا إنّي آنست نارًا]؛ ما اختلف هو التتمة: ما طرأ على ذهن موسى حين رأى النار: فكّر أولاً بإحضار شعلة من النار، أو يجد إنسانًا قريبًا منها يدلّه على الطريق "لعلّي آتيكم منها بقيس أو أجد على النار هُدى" ثم يرى أنّ حاجته إلى الإنسان تسبق حاجته إلى النار "سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهابٍ"، لكنّه بعد قليل من التأمّل رأى من غير الممكن أنْ يعِدَهم وعدًا حاسمًا بأنّه سيجد إنسانًا في هذه الليلة المظلمة فأخذ كلامه منحى التمنّي "لعلّي آتيكم منها بخبرٍ أو جَذْوةٍ من النار لعلّكم تصطلون".

كلّ حالة من هذه الحالات الثلاث، تصوّر الحالة الداخليّة لموسى، وهي مجتمعةً تعبّر عن ذهنيّته ونمط تفكيره.

المقطع الثاني: تصوير عصا موسى:

---

[1]- طه/10.
[2]- النمل/7.
[3]- القصص/29.

"حيّة تسعى"[1]، "ثعبان مبين"[2]، و"تهتز كأنّها جان"[3]، كلّ صورة من هذه الصور الثلاث تكمّل الأخرى ولا تتناقض معها، فالحادثة واحدة، ولكن نُظر إليها من زوايا ثلاث مختلفة.

عناصر القصّة القرآنيّة:

إنَّ القصّة القرآنيّة من حيث توزّع عناصرها، من نوع القصّة القصيرة، ولم تأتِ على شكل رواية إلاّ في مواضع معدودة كقصّة يوسف.

العناصر البارزة في القصّة القرآنيّة: الشخصيّة، الحدث، الحوار.

العنصر الأبرز في القصص التي تهدف إلى الإنذار والتحذير هو "الحادثة"، أمّا في القصص التي لها قيمة عاطفيّة، وتهدف إلى طمأنة قلب الرسول وقلوب المؤمنين، فالعنصر الأساسيّ هو "الشخصيّة"، وفي القصص التي تهدف إلى الدفاع عن الدعوة الإسلاميّة والردّ على المعارضين، يشكّل الحوار عنصرها الرئيسيّ.

توزّع العناصر في قصّة صالح:

وردت هذه القصّة في أكثر من سورة، واختلف توزّع عناصرها تبعًا لتطوّر الدعوة الإسلاميّة واتساع نطاقها. وردت هذه القصّة أولاً في سورتيّ الشمس والقمر، وكانت "الحادثة" هي العنصر الأصليّ، أي ما أصاب قوم ثمود، وما تعرّضوا له من أحداث مفجعة.

---

[1]- طه/20.
[2]- الأعراف/107 والشعراء/32.
[3]- القصص/30 والنمل/10.

كان ذلك في بداية الدعوة الإسلاميّة، وكان الهدف تحذير المشركين والمعاندين، فتمَّ التركيز على الحوادث التي تهدف إلى الإنذار:

"كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا" (11) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (12) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (13) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا[1] (15) .

"كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ" (23) "وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ"[2] (32) .

– لكن بعد أن تقدّمت الدعوة الإسلاميّة، ورد في سورتيْ الأعراف والشعراء عنصر قويّ آخر هو عنصر "الحوار"، ففي ضوء الحوار ذكرت الشخصيّات والأحداث، ومردّ ذلك حاجة المسلمين في هذه المرحلة، إلى مواجهة المخالفين بالحوار، لصرفهم عن الوقوف في وجه الدعوة:

"وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (73)"فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ"[3] (79) .

"كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ" (141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (145) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللَّهَ

---
[1]- الشمس/من 11 إلى 15.
[2]- القمر/23 - 32.
[3]- الأعراف/73- 79.

وَأَطِيعُونِ (150) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (152) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (154) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (155) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (156) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (157) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (158)"وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ"[1] (159).

– لكن حين بلغت الدعوة الإسلاميّة الحدود التي تفرض عليها مواجهة الدسائس والمؤامرات، رُويت القصّة بالأسلوب الذي يتلاءم وهذا التوجّه، وتجلّى ذلك في سورة "النمل"، فعادت "الحوادث" لتشكّل العنصر الرئيسيّ، إنّما هذه المرّة لم يجر الكلام على الأحداث الطبيعيّة، وإنّما على القضاء (التدخل الإلهي) الذي يؤدي الدور الرئيسيّ. فالعذاب الذي أصاب أعداء صالح إنذار لأعداء محمّد (ص)... وهكذا نرى أنّ عناصر القصّة، وأسلوب توزيعها كان يتطوّر بتطور الدعوة الإسلاميّة:

"وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (49) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا

---

[1]- الشعراء/ 141- 159.

يَشْعُرُونَ (50) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ"[1] (53).

الشخصيّات:

إقامة التوازن بين الشخصيّات والحوادث:

القصّة القرآنيّة ترتكز على محورين: الشخصيّة والحادثة، أحيانًا يتغلب عنصر الشخصيّة، وأحيانًا تكون الغلبة للحادثة أو للحوادث، أو أنّ العنصرين يسيران معًا متوازيين:

جاء التوازن بين الشخصيّة والحادثة في القصّة القرآنيّة على نحو إعجازي، فما من قصّة قرآنيّة كان محورها الشخصيّة وحدها أو الحادثة وحدها، لكنّ مضمون القصّة حُمّل للعنصرين معًا، فالأشخاص مصاديق للبشر في ساحتيّ الخير والشرّ، الحقّ والباطل؛ والحوادث أطر تُبرز قوى الخير وقوى الشرّ. من هنا كانت قصّة الشخص الواحد ترد أكثر من مرّة وفي أكثر من حالة، لإبراز الشخصيّة في الظروف المختلفة، لذلك، لم تأتِ قصّة شخص واحد أو نبيٍّ بعينه في سورة واحدة (باستثناء قصّة يوسف)، بل في أكثر من مكان، وهذا سببٌ من أسباب التكرار في القصص القرآني، التكرار الذي جاء طبيعيًّا في تعدّد المضامين التي تبرز من خلال تقاطع الشخصيّات والحوادث، بحسب الظروف والمتغيّرات.

الصورة العامّة للشخصيّة:

فضلاً عن الشخصيّات التاريخيّة التي ذُكرت أسماؤها وهُويّاتها، تواجهنا في بعض القصص القرآني وبخاصّة (القصة ← المثل) أشخاص لا أسماء لهم، اكتُفيَ بذكر صورة مجملة

---

[1]- النمل/45 ← 53.

لهم مثل "الرجل"، "الرجلين"، "القوم"، حيث لم يذكر اسم الشخص ولا صفاته أو أحواله، أو تحديد هُويّات الأشخاص وصفاتهم وأحوالهم، لأنّ ذلك لا تأثير له في ما تهدف إليه القصّة من ضرب المثل، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كي لا يتشتت ذهن المخاطب بقضايا فرعيّة غير ضروريّة:

أنظر إلى هذا المثل:

"وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"[1] (76).

ففي هذا المثل يريد القرآن من خلال أسلوب التأكيد (كما يقتضي التعميم)، المبنيّ الإستفهام الإنكاريّ، أن يقارن بين جميع الأشخاص الموتى قلوبُهم، والأشخاص الأحياء الحاضرين في المجال الإجتماعي، دون أن يكون هذا الشخص (مضرب المثل) فردًا معيّنًا، له لونه الخاص وجنسه وملّته وموطنه.

علمًا أنّ المفسّرين بالنسبة إلى سورة الكهف مثلاً، على الرغم من تحذير القرآن، أوردوا تفاصيل شتّتت ولا تزال أذهان القرّاء عن الهدف الأصلي للقصّة، ومغزاها المطلوب.

ما يجب التأكيد عليه، بالنسبة إلى الأشخاص الذين ذُكروا مضربَ مثلٍ، على الرغم من عدم ذكر تفاصيل حول هُوياتهم، فهم أشخاص واقعيّون حتى وإن لم يُشر القرآن إلى اسم الشخص أو الأشخاص أو القرية، ذلك لأنّ الهدف العام لا يتطلّب الدخول في التفاصيل. كلّ واحد من هؤلاء هو مادّة للاعتبار؛ "الرجل" مرآة لرجل معين في العالم الخارجي، و لم يسمّه القرآن ليكون عبرة للرجال والنساء على حدّ سواء.

[1]- النحل/76.

أنواع الشخصيّات:

ليس المراد بالشخصيّة في القصّة القرآنيّة الإنسان وحده، فكلّ من ورد ذكره من الأحياء، ونُسب إليه كلام أو حدث أو فكرة، يكون من شخصيّات القصّة: الملائكة، الجن، الحشرات، الطيور، الإنسان.

النملة والهدهد:

تحضر النملة (القائِدة) والهدهد (المخبِر) معًا في قصّة واحدة، النملة تحذّر رفاقها، وتطلب إليهم الدخول إلى منازلهم [صيغة جمع المذكر السالم للحشرات، تشخيص لها وتأكيد على محوريّتها]، والهدهد، بأمر من الله عزّ وجلّ يحمل إلى سليمان (ع) أخبار البلاد البعيدة، التي يجهل كلَّ شيء عنها، فيتعجب سليمان من أخباره:

"وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ" (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (21) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ

(26) قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27)"اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُــمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ"[1] (28).

في هذه القصّة الهدهد، عاقل وذكيّ، في تقديره لما يراه، يتعجّب من الملكــة ورجالهــا الذين يعبدون الشمس ويعتقد أنّ الشيطان هو الذين يُزيّن لهم ذلك.

المـــرأة:

على الرغم من القيمة التي أعطاها النص القرآني لدور المرأة وحضورها في قصصــه، لم يعتمد مطلقًا على مظهر المرأة الخارجيّ وصفاتها الظاهريّة، وسيلة لإثارة مشــاعر المخاطــب. فالمرأة تظهر في القصص القرآني عنصرًا كسائر العناصر، بما يُناسب فضاء القصّة وإمكاناتهــا، ودورها طبيعيّ وغير مصطنع؛ وهو الدور نفسه الذي تؤدّيه في الواقع، بهدف إعــادة صــياغة الإنسان. حتى دور امرأة العزيز الرئيسيّ في قصّة يوسف وفي أحداثها المتنوّعة، جــاء طبيعيًّــا ومناسبًا لمكانتها وشأنها الواقعيّين.

النظرة المنصفة إلى المرأة:

المرأة بحسب خصائصها التكوينيّة، تتسامى أو تنحدر في إنجاز وظائفها تبعًا لتكوينــها وللظروف المحيطة بها، وهي مع الرجل يشكّلان الهيكل الإنسانيّ، كاليدين بالنّسبة إلى الجســد الواحد، ولا فرق بينهما بالنسبة إلى الشؤون الإنسانيّة، أمّا الاختلاف ففي مجال التكوين الذين يفرض على كلّ منهما واجبات ولكلّ منهما حقوقًا مختلفة. فيكون التفوّق أحيانًا من نصــيب الرجل وأحيانًا من نصيب المرأة، وانطلاقًا من هذا التكوين فرض القتال علــى الرجــال دون

[1]- النمل/20 - 28.

النساء، لأنّ المرأة التي تلد الإنسان، لا يمكنها أن تقتل إنسانًا، الولادة والقتل لا يجتمعان في طبيعة الشخص الواحد.

هذه النظرة المتعادلة والفطرية إلى المرأة تسري في جميع القصص القرآني، حينًا في ما يتعلق بالشأن الإنسانيّ وحينًا بما يتعلق بالدور الأنثويّ، ولها في كلٍّ من المجالين وضع خاص. فهي الإنسان العاقل، الرشيد، البصير، المسؤولة والمكلّفة، تحمل على عاتقها وظيفة حماية القيم؛ والأنموذج الأبرز هنا زوجة فرعون، التي تخلّت عن السلطة والنفوذ والذهب والكذب، والتجأت إلى الهداية الإلهيّة لتكون الأسوة الحسنة لجميع المؤمنين:

"وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ"[1] (11).

لم يذكر اسمها لأنّها أنموذج عام، كمؤمن آل فرعون، الذي لم يُذكر اسمه، وإنّما ذُكر أنّه تمرّد على سلطة فرعون والفراعنة.

كذلك في الضلال، للرجل والمرأة مكانة واحدة، المرأة غير الصالحة أنموذج للإنسان غير الصالح رجلاً أو امرأةً. والمثال على ذلك زوجة نوح وزوجة لوط:

"ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ"[2] (10).

---

[1]- التحريم/11
[2]- التحريم/10

حين يكون القصد المثال والأنموذج لا يذكر اسم المرأة: زوجة فرعون، زوجة نوح، زوجة لوط، زوجة أبي لهب، ملكة سبأ: تمثيل لجنس المرأة، بحسب صفات كلٍّ منهن... أمّا حين يكون للمرأة دورٌ خاصٌّ متميّز فيُذكر اسمها وهُويّتها كمريم ابنة عمران.

علمًا أنّ العرب قبل الإسلام، ما كانوا يأنفون من ذكر زوجاتهم وأمهاتهم بأسمائهن، حتى أنّ عددًا من القبائل كان يُنسب إلى الأم، يقول الشاعر القتّال الكلابيّ مفتخرًا بأمه:

أنا ابن أسماءَ أعمامي لها وأبي   إذا ترامى بنو الإموان بالعار.

التصوير الطبيعي للمرأة من مختلِف الأوجُه:

صُوِّرتِ المرأة في القصص القرآني من جميع الجوانب، وعلى النحو الذي يقتضيه تكوينها وطبيعتها وفطرتها. مثلاً: الفتاة الباحثة عن الزوج بمحبّة ورقّة، ما أروعَ هذا التصوير القرآني للفتاة التي التقاها موسى في مَدْيَن:

"فجاءته إحداهما تمشي على استحياء"[1]، في هذا السياق نحن أمام تصوير رائع وواقعي، تمشي على استحياء وليس بحياء، وهذا منتهى العفاف، وكأن الحياء هو الموضع الذي تسير عليه، لا تمشي على الطريق، بل على الحياء؛ مع ذلك، هي نفسها حين تصل إلى أبيها، تحضّر أرضيّة الحوار ومقدّماته، تحثّه على استئجار موسى لخدمته، في هذه الحال، خالط التدبير والتعقّل مشاعر الفتاة وعاطفتها، وهي ترغّب أباها بهذا العمل:

[1]- القصص/25.

"إنّ خيرَ من استأجرت القويُّ الأمين"[1]، والأب الذي أدرك ما في ضـــمير ابنتــه، في المجلس نفسه كلم موسى عن الارتباط بإحدى ابنتيه: "قال إني أريد أن أُنكِحَك إحدى ابــنتيَّ هاتين"[2]، أعطى موسى حرّية الاختيار بين إحدى البنتين، وفي الوقت نفسه، أظهر نحو ابنتيــه لطفًا، حين أتاح فرصة الزواج لكلتيهما، دون أن يعتمد معيار الصغر أو الكبر بالنسبة إليهما.

نواجه في القرآن وجهًا آخر من وجوه النساء: المرأة التي تسخّر روحها وعقلها في سبيل هواها: زوجة "عزيز مصر".

أما زوجة فرعون فهي أنموذج الإنسان المحبّ، بعاطفة الأمومة الجيّاشة لديها، حين رأت الطفلَ موسى بين يدي فرعون، صرخت طالبة إليه ألاّ يقتله، ويبقيه قرّة عينٍ له ولها: "قالــت امــرأة فرعون؛ قرّة عينٍ لي ولك، لا تقتلوه، عسى أن ينفعنا أو نتّخذه ولدًا"[3].

أنموذج آخر للمرأة، المرأة الملكة، الحاكمة، التي بلغت مرتبة رفيعة بين قومهــا، ملكــة "سبأ" في قصة سليمان، المرأة العاقلة المدبّرة الحكيمة، التي لم تكن خاضعة لعواطفها ومشاعرها الأنثويّة، ولا تتوانى عن جمع عقلاء قومها وحكمائهم، لتستشيرهم في المعضلة التي واجهتــها، لتتخذ هي بعد ذلك الموقف العقلانيّ الصائب:

"قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ" (32) قَالُوا نَحْــنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (33) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُــوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (34) "وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَــيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ"[4] (35).

---

[1]- القصص/26.
[2]- القصص/27.
[3]- القصص/9.
[4]- النمل/32 - 35

وتأتي الملكة أخيرًا إلى سليمان وتتبعه، غير مضطرّة أو مجبرة، وإنّما بحرّيّة ودراية وعلم.

دور الرجل:

الرجال في القصص القرآني يؤدّون مختلف الأدوار، منهم الرسل والأنبياء كآدم ونوح وهود وصالح وإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب وشعيب ولوط وزكريا ويحي وأيوب وموسى وعيسى وآزر ولقمان وعُزير، أو الملوك والوزراء كفرعون وهامان، ومنهم الرجال العاديّون كإبن نوح وإخوة يوسف وغيرهم من الرجال الذين التقى بهم وتعامل معهم في السجن وخارجه، وجميع هؤلاء يشتركون في ميزة واحدة، وهي عدم ذكر أسمائهم وأوصافهم وسماتهم الفيزيائيّة، كالقدّ واللون وعلامات الوجه الخ، مما لا يقدّم ولا يؤخّر في الأدوار التي أوكلت إليهم مهمّة تأديّتها في سياق القصّة.

وهذه ميزة من الميزات التي تجعل القصة القرآنيّة مختلفة عن القصّة البشريّة، التي تتكىء عادة على الأوصاف الظاهريّة والمحسوسة (ليس من باب ذم القصّة البشريّة أو مدحها)، وإنّما لاختلاف رسالة القصّة والهدف من استخدامها. علمًا أنّ ذكر الأوصاف الظاهريّة والمحسوسة للشخصيّة، يأتي ضروريًّا ومفيدًا، حين لا يكون هو الأصل وإنّما جاء خِدمَة لعرض القصّة ومفاهيمها والتعريف بالسمات الحقيقيّة للشخصيّة.

الكناية في تحديد سمات الشخصيّة:

من الواجب هنا أن نذكر، أنّ الإشارة في القصص القرآنيّة إلى أوصاف الأشخاص، تأتي بلاغيًّا بأسلوب الكناية. مثلاً نفهم أنّ موسى يعاني من العيّ من خلال ما جاء على لسان

موسى نفسه: "واحلل عقدة من لساني"[1]، ومن خلال ما جاء على لسان فرعون من أنّ موسى لا يستطيع التعبير عن نفسه:

"وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ" (51) "أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ"[2] (52).

– نفهم الإشارة إلى قوّة طالوت من خلال قوله عزّ وجلّ:

"وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ"[3] (247).

– أيضًا من خلال السياق في قصّة يوسف نستنتج صفاته الشخصيّة بحسب تطوّر الحوادث:

من خلال نصيحة أبيه له نستنتج أنّه كان مصدر حسد إخوته، حضوره في منزل العزيز دلالة على سلطته ونفوذه الاجتماعيّين؛ أصبح يوسف بما يتمتع به من خُلُقٍ ممزوج بالأدب والقوّة والصفاء، محطّ الأنظار، إضافة إلى ما يعنيه ذلك من قدرة على التكيّف مع الأوضاع والظروف المستجدّة؛ يوسف صبور وليّن العريكة؛ جميلٌ إلى حدّ جعل امرأة العزيز على الرغم من موقعها تطمع فيه، ودفع باقي النسوة إلى تقطيع أيديهنّ؛ يوسف شابّ عفيف طاهر، تغلّب على المغريات؛ وهو وفيٌّ، لم يخن من قدَّم له الملجأ والحماية. وظلّ على الرغم من تكرار المرأة لمحاولات الإغواء، محافظاً على عهد الصدق والتقوى، مفضّلاً السجن على الخيانة والمعصية؛ يوسف من رجال الله الذين حباهم الله علمًا وحكمة ومعرفة (تعبير الرؤيا). وهو كذلك رجل

---

[1]- طه/27.
[2]- الزخرف/51 و52
[3]- البقرة/247

الأمانة والتدبير والإدراة، يخرج من السجن فيتولّى خزينة الدولة، ويخلّص مصر من الانهيار الاقتصاديّ؛ وهو كذلك حادّ الذكاء يحسن توظيف الفرص: عرف إخوته حين قدموا إليه ليبتاعوا دون أن يعرفوه، وبمخطط محكم وحكيم استقدم عائلته من الشام إلى مصر، لينهيَ بذلك عهدَ الألم والفراق. ويوسف متواضع ويعرف واجباته، على الرغم من مكانته تواضع لأبويه وأجلسهما على العرش، ولم ينس ذكر الله.

كل صفة من صفات يوسف هذه، وضّحها كنايةً أحد أحداث الرواية، دون تسميتها بأسمائها.

الملائكة:

من شخصيات القصّة القرآنيّة الأخرى، الملائكة يتحركون بأمر الله وتدبير منه، ويظهرون في هيئات متنوعة، في قصص إبراهيم ولوط وزكريا ومريم، ويعتقد البعض أن المَلَك ظهر في قصة داود بصورة إنسان.

دخل الملائكة على إبراهيم ولوط أيضًا كضيوف، استضافهم إبراهيم، لكن لوط خاف منهم:

"وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ" (69) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (70) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (71) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (73) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ

أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آَتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (76) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (78) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (79) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آَوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (80) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (81) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (82) "مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ"[1] (83) .

كذلك نزل الملك على مريم بصورة البشر، فاضطربت واستعاذت بالله.

"قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا" (19) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) "قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا"[2] (21).

في المحراب سمع زكريا أيضًا صوت الملك، ودخل الملائكة على إبراهيم فخاف منهم؛ والملاكان هاروت وماروت علّما الناس السحر في بابل:

"وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ

---

[1]- هود/69 - 83.
[2]- مريم/19 - 21.

حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ"[1] (102).

الجنّ:

لا يظهر في القرآن بصورة البشر، فالجن كالناس يعبّرون عن أفكارهم، ومثلُهم يخافون الله ويرجونه، وهم إما مؤمنون أو كافرون، يحاورون ويجادلون كما يفعل البشر، وهذا ما تصوره سورة الجنّ.

لكنّ في قصّة سليمان، نجد صورة أخرى للجنّ، يقومون بمختلف الأعمال بإمرة سليمان. لقد كان تصوّر الجنّ معروفًا لدى عرب الجاهليّة، وعبّروا عنه في أشعارهم، ونرى ذلك واضحًا في شعر "النابغة"، جاء تصوير الجنّ في قصّة سليمان على النحو التالي:

"فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ" (36) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (37)"وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ"[2] (38).

"وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ" (12)"فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ

---

[1]- البقرة/102
[2]- ص/36 - 38

الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ"[1] **(14).**

إبليس:

شخصيّة أخرى من شخصيّات القرآن، صُوّر بأشكال متنوعة: عصيانه لله في قصّة خلق آدم، ودوره في قصّة خروج آدم من الجنة، وتحريضه لبني آدم وإثارته للفتن، وفيها أيضًا دروس وعبر في ما ترمز إليه.

الحادثة:

الحادثة، من أهمّ عناصرالقصّة القرآنيّة، والحوادث في القصص ثلاثة أنواع: 1) الناتجة عن القضاء والقدر، 2) الإعجازيّة غير العاديّة، 3) العاديّة الطبيعيّة.

1) الحادثة الناجمة عن القضاء والقدر:

يبدأ أحد الأنبياءبتبشير قومه فيكذّبونه ويطلبون إليه علائم وأدلّة على صدق نبوّته، ويصرّون على العناد والإنكار حتى بعد رؤية الآيات، ويضطهدونه ويعرقلون مساعيه، فيُنزل الله العذاب على المعاندين والكافرين، وما أبدع هذا التصوير لما جرى لقوم ثمود:

"كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ" (141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (145) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (150) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا

---

[1]- سبأ/12 و14

يُصْلِحُونَ (152) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (154) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (155) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (156) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (157) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (158) "وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ"[1] (159).

2) الحادثة الإعجازيّة، غير العاديّة:

هذا النوع من الحوادث، ييسره الله عزّ وجلّ لأنبيائه، دليلاً على نبوتهم:

"إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ" (110) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (111) إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (112) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (113) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا

---

[1]- الشعراء/141 - 159.

وَآيَةً مِنك وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِين (114) "قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ"[1] (115).

وكلتا الحادثتين: الناجمة عن القضاء والقدر والإعجازيّة على حدّ سواء، يعبّر القرآن عنها بأسلوب، يدفع القارىء إلى النظر إليها بمنظار الواقع.

أمّا سبب عناية القرآن بهذين النوعين من الحوادث، فأمرٌ جدير بالتأمّل. ذلك أنّ الناس في عصر النبيّ، كانوا يعتقدون أنّ حقانيّة أيّ نبيّ تعتمد على ما يقدّمه من معجزات كبرى، وأعمال غير عادية، فلبى القرآن هذه الحاجة، بأنّ ذكر معجزات الأنبياء السابقين، ليقول للمشركي، إنّكم غير صادقين في ما تطلبون، وأنّ الأمم التي سبقتكم طلبت المعجزات، ومع ذلك لم تؤمن:

"وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ"[2] (111).

3) الحادثة العاديّة، الطبيعيّة:

هذا النوع من الحوادث الطبيعيّة التي تقع في حياة البشر باستمرار، موجود بكثرة في القصّة القرآنيّة، الرسل وغير الرسل من الأشخاص العاديّين أبطال عدد من القصص القرآني، يمارسون هذه الأحداث العاديّة، ولعلّ أجملها وأشدّها عبرة، الأحداث التي مرّت على يوسف، ومواقف الآخرين منه. وطريقة اختيار القرآن لأجزاء بعينها من الحادثة، هي التي تجذب المتلقّي، وتقدّم له الدروس والعبر، "من المفيد هنا أن نتكلم قليلاً على ترابط الأحداث والمحور الذي

---

[1]- المائدة/110 - 115.
[2]- الأنعام/111.

تدور في فلكه: في القصص القرآني الزمان عادة ليس هو محور الحوادث، ولفهم هذه النقطـــة، يجب النظر في قصّة واحدة رُويت من زاويتين مختلفين ولهدفين اثنين أيضًا هي قصّة إبراهيم كما جاءت في سورتيْ هود والذاريات.

"وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيـــذٍ" (69) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِـــلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (70) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُـــوبَ (71) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قَـــالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيـــدٌ (73) فَلَمَّـــا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِـــيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75) "يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ"[1] (76) .

"هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ" (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَـــلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَـــأْكُلُونَ (27) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (28) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِـــيمُ (30) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ

---

[1]- هود/69 - 76

الْمُؤْمِنِينَ (35) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36) "وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَــةً لِلَّــذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ"[1] (37).

هذه الحوادث على الرغم من ارتباطها بقصّة واحدة، إلا أنّها لا تنحو منحىً واحــدًا. كما أنّها تختلف أيضًا من حيث القبض والبسط، والتكثيف والإطالة، حتى كلام الملائكة، رُويَ أيضًا بتجلّيات مختلفة، ولا يدلّ ذلك على التناقض بين الصورتين مطلقًا، وإنّما خدمة لغــرض القصّة وهدفها، ففي الرواية التي وردت في سورة هود، كان الهدف هو تخفيف الضغط الروحي على نبيّ الإسلام، فجاء الكلام على التفضّل على إبراهيم و"البشرى"، وعلى قوم لوط "غــير المجرمين" و"الحميد المجيد". أمّا الهدف من الرواية في ســورة الــذاريات، فتخويــف الكفّــار والمعاندين من عذاب الله، ليكفّوا عن عنادهم وطغيانهم. من هنا فإنّ الترابط بين الحوادث يدور حول محور هذا التخويف، فتكلم الملائكة مباشرة على نزول العذاب على قوم لوط المجرمين، في حين أنّ الملائكة أنفسهم تحدّثوا في الرواية الأولى عن أجر لوط، و لم يسمّوا قومه مجرمين.

الحبكــة:

ينحو القصص القرآني في حبك الحوادث منحيان:

1- حبكة مباشرة، تأتي بشكل طبيعي، هذا النوع مشاهدٌ في معظم القصص القرآني.

2- حبكة غير مباشرة، أو بعكس السياق الطبيعي، وهذا ليس محصورًا كما يعتقد الــبعض في قصّة البقرة وحدها التي طلب موسى إلى قومه أن يذبحوها، وإنّما كذلك في قصّة إبراهيم كما وردت في سورتيْ هود والحجر:

---

[1]- الذاريات/24 - 37.

"وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ"[1] (69).

من الواضح أنّ مكافأة هؤلاء الملائكة لإبراهيم، جاءت بعد أن قدّم الطعام إليهم ورفضوه، فخاف منهم، ومن ثمّ توضّحت له الحقيقة. لكن في ترتيب القصّة، جاءت البشارة في البداية.

ومن هذا النوع أيضًا من الحبكة غير المباشرة ما ورد في قصّة لوط مع هؤلاء الملائكة:

"فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ" (61) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (62) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (63) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (64) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (66) وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67) "قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ"[2] (68) .

يُستنتج من قصّة لوط في أماكن أخرى من القرآن، أنّ الملائكة لم يصرّحوا بحقيقة الغرض، إلا بعد أن وصل أهل المدينة مستبشرين وهم يضمرون السوء له، لكن هنا، ذُكرت النجاة في البداية، و لم يُراعَ الترتيب الزمني.

من الواضح، حيث لا يُراعى النظم الطبيعي للحوادث، أنّ هنالك غرضًا خاصّاً من وراء ذلك، ولعلّ الغرض في القصّتين هو تخفيف الضغط عن نبيّ الإسلام، لذلك ذُكر الثواب في بداية القصّة.

---

[1]- هود/69.
[2]- الحجر/61 - 68

يتبيّن أنّ القصّة التي تبدأ بالكلام على الثواب، تفعل فعلها في تخفيــف الهــمّ والغــمّ، والقرينة على ذلك، أنّ سور هود والحجر ويوسف ويونس نزلت في المدّة الواقعة بــين (عــام الحُزن) والهجرة؛ وهي المدّة التي تعدّ من الأيّام الأشدّ صعوبة والأكثر ضغطاً في حيــاة الــنبي والدعوة الإسلاميّة:

"وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَــأَكُمْ مِــنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ" **(61)** قَــالُوا يَــا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ **(62)** قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَــةً فَمَــنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ **(63)** وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ **(64)** فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ **(65)** فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَــا صَــالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ **(66)** وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ **(67)** كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَــرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ **(68)** وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَــا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ **(69)** فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَــةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ **(70)** "وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْــحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ"[1] **(71)**

---

[1]- هود/61 - 71

أنظر إلى القصّة أيضًا في سورة هود:

"وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ" (77) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ"[1] (78)

وفي سورة العنكبوت: "وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (28) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (29) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (30) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (31) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (32) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (33) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (34) "وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"[2] (35).

الحركة:

دور الحركة: الحركة في القصّة القرآنية أعمّ من الانتقال الزمانيّ والمكانيّ والحادثة، وكذلك التحولات الفكريّة والعاطفيّة والشعوريّة. فكلّ قصّة تتضمّن في الحقيقة مجموعة من الأجزاء المتنوّعة الدائمة الحركة، فإذا تحرّكت هذه الأجزاء برتابة ونظم خاص، تكون حركة القصّة

---

[1]- هود/77- 78

[2]- العنكبوت/28 - 35.

لطيفة ومهدّئة للخواطر، كالأنغام المتنوّعة في الأثر الموسيقيّ الواحد، التي ينتج عن نظامها معًا أثر واحد جميل. من خلال هذه "الحركة" يتمّ تصوير العالم الحيّ، المتحرّك، حيث تعيش الكائنات بتناغم وبتفاعل مستمر منطقيّ ومتعادل، ينتج عنها مجتمعةً نظامٌ واحد، دون أن تتبع قانونًا واحدًا متماثلاً، وإنّما تأتي عادة تدريجيًّا، بعد خلق الحوادث وعناصر القصّة، من هنا يكون لها تأثير في مسار القصّة مادّيًا ومعنويًّا.

الحركة في مدار الواقعيّة المحضة:

الحركة في القصّة القرآنية جليّة إلى حدّ يفوق الوصف، ينطلق القرآن بالحادثة من مصدرها ومنبعها، ويسير بها نحو غايتها، دون أيّ انحراف عن المسار الطبيعي: مثلاً في هذا الكلام الذي خاطب به أخوة يوسف أباهم، الحقيقة واضحة بشكل جلي:

"مالك لا تأمنّا على يوسف وإنا له لناصحون"[1]، السؤال يتضمّن الجواب في باطنه، ويوضّح الوجه الواقعيّ لأخوة يوسف.

الزمان:

القصّة الناجحة هي التي تستثمر عنصر الزمان بدقّة ولطف بما يناسب الجو والأسلوب، لأنّ إخراج القصّة من حدود الزمان، يجعل منها شجرةً منبتّة الجذور، ومثل هذه الشجرة لا يمكنها أن تورق وأن تثمر.

دور الزمان:

الزمان في القصّة القرآنيّة بمنزلة اليد التي تمسك بالحوادث وتحرّكها. الزمان حيّ ومعلوم ومليءٌ بالمعنى، فلننظر في قصّة يوسف، حين أقدم اخوته على رميه في البئر، كانوا يدركون أنّ

---

[1]- يوسف/11.

وجوههم تحمل تعبير الدناءة والخداع والكذب، من هنا كان لاختيار الوقت الذين نقلوا فيه الخبر إلى أبيهم دورٌ أساسيّ في تطوّر القصة، اختاروا الليل لستر علائم الغدر على وجوههم:

"وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ"[1] .

وعنصر الزمان هذا هو الذي جعل أباهم يدرك نواياهم، لأنهم لو كانوا صادقين لأسرعوا إلى إخباره و لم ينتظروا حلول الظلام.

في القصّة نفسها، لم تُحدّد المدّة، لكن أشير إلى طولها، لأنّ المهمّ في القصّة التأكيد على أنّ يوسف على الرّغم من طول المدّة التي قضاها في السجن، لم ييأس و لم يتخلّ عن الإيمان بالله والدعوة إليه. فإبهام الزمان هو عين الوضوح:

"وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ"[2] .

حركة الزمان نحو الأمام:

التقدّم هو النَظم الطبيعي للزمان، وليس السكون أو العودة إلى الوراء: سلسلة الحوادث في آل عمران:

1- اختيار آل عمران للرسالة: **"إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ"**[3] .

2- نذر مريم وهي ما زالت في الأرحام للخدمة في بيت الله: **"إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"**[1] .

---

[1]- يوسف/16.
[2]- يوسف/42.
[3]- آل عمران/33

3- اكتمال نضج مريم، وتكفّل زكريا بها: **"فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ"**[2]

4- بشارة السماء لمريم بأنّها حامل بعيسى (ع): **"إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ"**[3] .

5- بدء دعوة عيسى (ع): **"وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"**[4].

الاستثناء في حركة الزمان: قصّة بني إسرائيل والبقرة:

في بعض المواقف الاستثنائيّة، جعل القرآن حركة الزمان الطبيعيّة غير مرئيّة، كما نشاهد في قصة (بني إسرائيل والبقرة)، في هذه القصّة لا تُروى الحوادث بحسب مسارها الزمني الطبيعي. فمسار القصّة الطبيعي هو التالي:

1- قُتل شخص من بني إسرائيل

2- لم يتفق الناس حول شخصيّة القاتل، وكاد الخلاف أن يؤدّي إلى فساد عظيم.

3- طلبوا إلى موسى أن يعرف القاتل بواسطة المعجزة.

---

[1]- آل عمران/35
[2]- آل عمران/37.
[3]- آل عمران/45.
[4]- آل عمران/49.

4- طلب إليهم موسى أن يذبحوا بقرة، ويفرّقوا لحمها، لتعـــود إلى الحيـــاة، وتعـــرّف بالقاتل.

5- تذرّع القوم بذرائع عديدة قبل أن يُقدموا على ذبح البقرة المطلوبة.

هذا بالنسبة إلى السياق الطبيعي للحوادث، أمّا القرآن فقد أورد المرحلتين الأخيرتين أولاً وبعد ذلك المراحل الثلاث الأولى:

البقرة: "**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**"[1] **(73)**

أمّا سرّ هذا التقديم والتأخير والاستثناء، فهو أنّ القـــرآن يـــرى إلى طبيعـــة الحادثـــة وحقيقتها؛ لكن هذه الطبيعة هي نفسها مقلوبة، والإنسان الذي هو العنصر الرئيسيّ في القصة ممسوخ ومتغيّر؛ لقد ملأ الشك وسوء الظنّ وجود الأشخاص كلّه، وما يجب أن ينظروا إليه في

---

[1]- البقرة/67 ← 73.

البداية، نظروا إليه بعد الكثير من اللتيّا والّتي؛ إذًا، طبيعتهم هي الّتي اقتضت أن تُروى قصّتهم مقلوبة، ليكون هنالك تناغمٌ بين الزمان والشخصيّات.

لون الزمان: هو الماضي:

اللون الوحيد في القصص القرآني هو الماضي، فجميع الحوادث تتحقّق في الزمان الماضي، لكنّ هذا الزمان الماضي لا حدودَ خاصّةً له. لا إشارة إلى السنين ولا إلى الشهور، ولا يتمّ التأكيد على المسافة الزمنيّة بين المخاطَب (معاصري الرسول) وزمان الحادثة المرويّة. وسبب ذلك أنّ العبرة المطلوبة معروضة في وعاء الماضي، ولا تأثير للدقّة في تعيين الزمان.

المكان:

دور المكان:

المكان هو الوعاء الذي تحتلّه أحداث القصّة، والزمان هو اليد الذي تحمل هذا الوعاء. لذلك لا يعادل دور المكان في القصّة، أهميّة دور الزمان وتأثيره. ومن الممكن جدًّا أن لا يكون للمكان الذي جرت فيه الحوادث أثرٌ خاصّ في إيصال رسالة القصّة وغايتها؛ من هنا فإنّ القرآن لا يذكر مكان القصّة، إلاّ حين يكون له دور خاصّ في مسار الحوادث وتقديم العبرة، كمصر ومَدْيَن والطور والأحقاف وجبل سيناء...

تأثير المكان، قصة "الإسراء" أنموذجًا:

قصة الإسراء من النماذج الدّالة على تأثير المكان في مسار القصّة: "المسجد الحرام" و"المسجد الأقصى" والمسافة بينهما، بالترافق مع عنصر الزمان "الليل"، وضّحت حدود القصّة، ولولا ذلك لأحاطت بقصّة المعراج هالةٌ من الإبهام؛ وعنصرا الزمان والمكان هنا، هما اللذان ولّدا الشعور بالفخر والعظمة لدى المؤمنين حين سماعهم هذه القصّة، وتسمية المسجدين وتحديد الزمان ليلاً:

"سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ"[1].

المكان في قصّة يوسف:

في قصّة يوسف ذُكر اسم مصر، المكانُ الذي حُمل إليه يوسف عبدًا، وقضى حياته فيها، إلى أن أصبح قيّمًا على إدارة اقتصادها، ثم مجيء يعقوب وأبنائه إليها، مقدّمةً لتواجد بني إسرائيل فيها. وهذا ما أتاح فهم أحداث قصّة يوسف فهمًا عميقًا، وتاليًا لإدراك ما ورد في قصّة موسى؛ حيث تعرّضوا في مصر بعد زمن لظلم الفرعون، فبعث الله عزّ وجلّ موسى لإنقاذهم. وهذا تذكير لليهود الذين يعيشون في أوساط المسلمين وعبرة لهم، ليدركوا أنّ الله عزّ وجلّ، أرسل محمّدًا نبيًّا كما أرسل موسى من قبل في مصر لإنقاذ آبائهم من نير العبوديّة، من هنا فإنّ ذكر مصر كان له هدف متعدّد الجوانب.

المكان في قصّة أهل الكهف:

---

[1]- الإسراء/1

لا يرد في قصّة أهل الكهف اسم ذلك البلد الذي جرت فيه أحداث القصّة، لكن يجري الكلام على أمكنة محدّدة، كالكهف البعيد عن المدينة، ثم عن مدينة بالمطلق، لتأثيرهما في تطوّر الوضع الفكريّ والروحيّ للأبطال.

الحـــوار:

دور الحوار:

الحوار هو الذي يبعث الروح في جسد القصّة أي قصّة. فبدون هذه الروح، تبدو ألفاظ القصّة ركامًا من الحجارة التي لم تتخذ الشكل المناسب، كما أنّ التنوّع والتلـــوين في الحـــوار يُضفي على حركة القصّة جمالاً ومتانة، فالحوار البسيط الظاهر، باطنه معقّد ويحتمل التأويـــل. والحوار هو الذي يبثّ الحرارة والحياة في جسد القصّـــة، بعرضـــه للإشـــارات والحركـــات والأحاسيس الكامنة في قلوب شخصيّات القصّة وأرواحهم.

التنوّع الأسلوبيّ في الحوار:

لم يتبع القرآن أسلوبًا واحدًا في صياغة الحوار في القصص، فالحوارات تختلف من قصّة إلى أخرى طولاً وقصرًا، صراحة وكنايةً، إجمالاً وتفصيلاً، بحسب الظروف والحال والهـــوى. أحيانًا يرسم الحوار على الرغم من طوله وجهًا واحدًا من وجوه الحدث، وأحيانًا يرسم، على الرغم من قصره واقتضابه، أكثرَ من وجه للحدث.

الحوار في قصّة موسى والفتاتين أنموذجًا:

حوار طويل لحدث مختصر:

موسى للفتاتين: – ما خطبكما؟

الفتاتان: – لا نسقى حتى يُصدِر الرعاة وأبونا شيخ كبير.

مع أنّ سؤال موسى كان شديد الاختصار، إلا أنّ جواب الفتاتين جاء تفصيلاً، وهذا الجواب هو الذي رسم فضاء القصّة.

لم يفهم موسى سبب تنحّي الفتاتين جانبًا، وكون أبيهما شيخ كبير لا يمهّد الأرضيّة لفهم الحوادث اللاحقة، لكنَّ الجواب يصور بشكل واضح وفنيّ سواد قلب أهل قلب مدين وقلّة مروؤتهم، بدون التصريح لفظيًّا بذلك.

<ins>حفظ هويّة المتحاورين:</ins>

الحوار في القصّة القرآنية له خصوصيّته التي تميّزه من بعض الآثار الأدبيّة الأخرى، وهذه الميزة عبارة عن: حفظ شخصيّات المتحاورين وهُويّاتهم. شخصيّات ذات وجود مستقلّ، لها منطقها الخاصّ، وتفكيرها المستقلّ وأسلوبها المميّز: المثال الواضح، كلام الهدهد في حضرة سليمان. نحن حين نقرأ كليلة ودمنة يساورنا شعور داخليّ أنّ حيوانات القصّة غير واقعيّين وإنّما هم رموز مصنوعون. لكن في قصّة الهدهد، نحسّ بصدق أنّ مثل هذا الهدهد وُجد في الواقع، وهذا الصدق يتبدى من خلال كلامه:

"فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ" "إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ"[1] .

[1]- النمل/22 و23.

بسبب هذه الميزة، يؤثّر الحوار تأثيرًا عميقًا في المخاطب، لا تحظى به عادة "الكلمة" في الآثار المكتوبة، ولا "الصوت" و"الصورة" في الآثار المسموعة والمرئيّة.

ملاءمة الحوار للشخصيّة:

يُظهر في القصّة القرآنية خصائص الشخصيّة: الإيمان والكفر، الضعف والقوّة، الطبقة الاجتماعيّة، كلها وغيرها من الصفات الأخرى تبرز من خلال هذا الحوار نفسه. وتتجلى هذه الميزة أيضًا في مناجاة الإنسان لربّه، وحتى في حواره الداخليّ، مما يؤثّر تأثيرًا عميقًا في تبيان خصائص الشخصيّة، وصياغة الفضاء المناسب. يمكننا هنا أن نورد مثلاً: من بين العبارات التي وُجّهت إلى الخالق طلبًا للمساعدة، وما تحمله من حرقة ورجاء يعبّران عمّا يتعرّض له الأشخاص من ضائقة عظيمة وانقطاع الرجاء من أي إنسان ومن كلّ شيء، إلا من الله عزّ وجلّ:

"ربّنا أفرغ علينا صبرًا وتوفّنا مسلمين"[1] .

هذا الكلام الصادر عن السحرة، الذين آمنوا، والذين يلجأون إلى رحمة الله ولطفه من أذى فرعون وتهديده لهم، ونفهم أنّهم فزعوا إلى أعتاب الله وهم في حالة من الخوف المطلق.

الإيجاز في الحوار:

من أهمّ ميّزات البلاغة القرآنية، الإيجاز في الكلام، وفي الحوار في القصص القرآني، لا ذكر للتفاصيل والجزئيّات، لا يذكر القرآن سوى العناصر الحيّة، الجديدة، الرئيسيّة، المؤثّرة، أي العناصر التي تكشف الستارة عن وجه الحقيقة الحقّة، المكنونة في ذات الأشياء وفي ذوات الشخصيّات.

---

[1]- الأعراف/126.

من خلال هذه البلاغة الشاملة والإيجاز الفنيّ، يجد المخاطب فرصةً للبحث عن الحقيقة التي لم تُقل، يفكّر فيها ويتصوّرها، فيتاح له ذهنيًّا أن يسافر في الأقاليم البعيـــدة، وفي الوقـــت نفسه تبقى الحقيقة كينونة مركزيّة في القصّة القرآنية، ولا مجال فيها لاختلاط الوهم بالحقيقة.

"الإلتفات" من ميزات الحوار:

الإلتفات من الخصائص البلاغيّة التي استخدمها القرآن في إعجازه الأدبي، تبديل الكلام من صيغة الغائب إلى صيغة المتكلّم في الكلام على المسيح:

"قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (47) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيـــلَ (48) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّـــئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[1] (49).

الإلتفات هنا ينبّه الذهن، ويضفي على فضاء القصّة تجسيدًا وواقعيّة في ذهن القارىء.

الحوار في قصّة موسى أنموذجًا:

في البداية الحوار بين الله عزّ وجلّ وموسى:

– الله: **"وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" "قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ"[2]** .

– موسى: **"قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ"[3]** .

– الله: **"قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ"[1]** .

---

[1]- آل عمران/47 و48 و49.
[2]- الشعراء/10 و11
[3]- الشعراء/12 و14.

بعد هذا الحوار يسرع موسى وأخوه إلى فرعون، لكن القرآن يوصلنا مباشرة وبدون أي واسطة من مخاطبة موسى لربّه، إلى مجلس الحوار بين موسى وفرعون، لذلك لم يرد ذكر الكيفيّة التي تمّ فيها اللقاء بين موسى وفرعون، وإنّما يورد مباشرة الحوار بينهما:

– فرعون: "قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ" "وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ"[2] .

– موسى: "قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ" "وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ"[3] .

– فرعون

– موسى

– فرعون يخاطب أتباعه: "وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ" (19) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (32)

---

[1]- الشعراء/15.
[2]- الشعراء/18 و19.
[3]- الشعراء/20 و22.

وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (33) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (35) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (37) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (38) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (39) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (40) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ[1] (41).

ثمّ تحدث معجزة موسى، مع الاستغناء عن الواسطة والزمان والمكان، بحيث يحسّ المخاطب وكأنّه مشاركٌ في هذا الحوار، كما يُلاحظ عنصرا الصدق والواقعيّة في متن الحوار. فحين واجه فرعون موسى بفعلته السابقة (قتل المصريّ)، لم ينكر موسى ذلك ليتخلّص من التهمة وإنّما قال:

- كنت حينئذ من الخاطئين.

الأهمّ من كلّ ذلك تلاؤم الألفاظ المستخدمة مع الحالات الشعوريّة والروحيّة، فحين يحتدم الحوار تأتي الألفاظ قاسية والعبارات طويلة:

يجيب موسى فرعون بقوله: فعلتها إذا وأنا من الضّالين، ففررت منكم لما خفتكم فوهبَ لي ربّي حكما وجعلني من المرسلين. تلك نعمةٌ تمنُّها عليَّ أن عبّدت بني إسرائيل؟

لكن حين تخفّ حدّة الكلام، يصبح وقع الكلمات أسلس، وتقصر العبارة، يبدأ فرعون كلامه بقوله: "وما ربّ العالمين"، ويستمر الحوار على هذا النحو، بأسلوب مباشر، دون أيّ تكلّف أسلوبيّ، وتعبّر عن الحالات الشعورية لموسى وفرعون صعودًا وهبوطاً.

---

[1]- الشعراء/19- 41

في اللقاء التالي بين موسى وفرعون، يتخذ الحوار في أبعاده البنيويّة ولهجته وألفاظه لون الحـــدّة والهياج:

طه: "قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَـــى (52) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (53) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (54) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (55) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَـــا كُلَّهَـــا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (58) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60) قَالَ لَهُـــمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَـــابَ مَـــنِ افْتَـــرَى (61) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (62) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (63) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (64) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66) فَأَوْجَسَ فِـــي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (67) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (68) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (69) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70) "قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ

السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى"[1] (71).

في حوار موسى وهارون بعد أن عاد موسى من ويعاده مع الربّ، وجد قومه قد ضلّوا السبيل، اللهجة غاضبة، والكلمات شديدة الوقع، والجوّ مشحون في قول موسى:

"يا هرون، ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا، ألاّ تتّبعنِ، أفعصيت أمري؟"[2]

مفاهيم القصّة القرآنية وآثا

رها:

I) التعاليم الفكرية:

1- طبيعة القصّة القرآنية:

إنّ معظم القصص القرآني مكّيّ، لذا فهي تعالج القضايا الدينيّة العامّة والكليّة، لأنّ طبيعة الدعوة الدينيّة في هذه المرحلة، كانت تقتضي بالدرجة الأولى تثبيت دعائم الدين، و لم تتطرّق كثيرًا إلى القضايا من الدرجة الثانية، إلا في بعض الأحيان حيث عولجت بعض القضايا الأخلاقيّة، كقضية "بخس الأسعار"، التي وردت في قصّة شعيب، ربما كان سبب ذلك أنّ الاستغلال الاقتصاديّ ظلّ- حتى بعد استقرار الإيمان- مهيمنًا على المجتمع، لذا أولى القرآن

---

[1]- طه/49 - 71.
[2]- طه/92 و93.

هذه القضيّة أهميّة كبيرة، وعدّها من بين القضايا البنيويّة. أمّا الشؤون العقائديّة الـتي عالجتـها القصص القرآنية فهي:

2- الحاجة إلى الإيمان (التديّن):

إنّ الحاجة إلى الإيمان، أو حسّ التديّن لدى الإنسان لهما جذورٌ في فطرته. والبشر جميعًا متساوون في هذا المجال:

"فطرة الله التي فطرَ الناس عليها، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم"[1] هذا الشعور، أو هذا الإحساس، الذي أصابه الكثير من الإنحراف- على الرغم من منبعه الفطري- هو الـذي تصدّى للإحساس الصافي السليم، فقوم عاد كانوا يعبدون آلهةً من صنع أيديهم، وبهذه العبادة حاجّوا نبيّ الله:

"قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (70) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ"[2] (71).

وكان هؤلاء الناس يعتقدون- اعتقادًا حقيقيًّا، أنّ الآلهة التي صنعوها بأيديهم قادرة على إلحاق الأذيّة بهم:

"قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (53)

"إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ"[3] (54).

---

[1]- الروم/30
[2]- الأعراف/70 و71
[3]- هود/53 و54.

كان هذا الشعور الدينيّ مستحكمًا ومتجذّرًا وقويًّا، أوجد بين الناس وآلهتهم "محبّة" و"مودّة":

"وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ"[1] (25).

من هنا، حثّ القرآن الناس على نحو ملموس ومحسوس، أن يُعمِلوا تفكيرهم، ليتأكدوا إن كانت هذه الآلهة فعلاً بالصفات التي تجعلها أهلاً للعبادة؟ أوضح أنموذج على هذا الدافع الفطريّ نلاحظه في قصّة إبراهيم:

"وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ"[2] (82)

هذه المواجهة الحسّيّة الملموسة، التي تضرب على وتر الإيمان السليم، تظهر في مخاطبة القرآن لأمّة محمّد:

"إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (194) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (195) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي

---

[1]- العنكبوت/25.

[2]- الشعراء/69 ← 82.

نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (196) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (197) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ"[1] (198).

تتجلّى دعوة الأنبياء الأساسيّة في مرآة القصص القرآني، من خلال التنبيه والدعوة إلى عبادة الله الواحد، والتخلّي عن عبادة الآلهة المصنوعة:

"اعبدوا الله مالكم من إله غيرُه"[2].

3- علم الأنبياء اللدني:

إنّ الله العزيز الحكيم، أطلع رسله الذين اصطفاهم من بين الناس، على علم الغيب في الحدود التي أرادها هو، وذلك من منطلق أنّ الأنبياء بإمكانهم أن يفتحوا عيون الناس على آفاق السعادة المجهولة. وتختلف كيفيّة هذه العلاقة من نبيّ إلى آخر، بما يتناسب وظروف دعوته ومناخها وفضاءها:

إبراهيم ويوسف بـ "الرؤيا الصادقة"، وموسى "بالتكليم"، وإبراهيم بواسطة الملائكة الذين ظهروا على هيئة البشر.

4- المعجزات:

نزل القرآن في زمان كان الناس فيه يعتقدون أنّ النبيّ، يجب ان يكون ملاكاً أو إنسانًا اختاره الله، وأمدّه بآيات وبيّنات معجزة، وقد صرّح القرآن بأنّ إتيان المعجزات من ميزات

1- الأعراف/194 ← 198.
2- الأعراف/59 و65 و73 و85؛ هود/25 و61 و84؛ المؤمنون/23 و32.

الأنبياء، لكنّه لم يجعل الإيمان وقفًا على المعجزات، وقد صرّح النص القرآني أكثر من مرّة بـــأنّ الأنبياء السابقين، قد قاموا بالمعجزات، ومع ذلك عارضهم قومهم وحاربوهم:

"وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَـــانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ"[1] (111).

II) الوصايا الأخلاقيّة:

اعتمد القرآن ثلاثة أساليب للتّأكيد على الوصايا الأخلاقيّة وإيصالها إلى الناس:

1- أسلوب النهي الصريح، والأمر المباشر:

جاء هذا الأسلوب بالنسبة إلى الأمور غير الأخلاقيّة السائدة في المجتمع، والتي كانت من الأمور العاديَّة في حياة الناس، ومن السنن الإجتماعيّة، وكمثال على ذلك الأمر الموجّه إلى أهل مَدين قوم شعيب بأن يوفوا الكيل والميزان ولا يُبخسوا الناس أشياءهم، ولا يُفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، وأن لا يصدّوا عن سبيل الله، وأن ينظروا كيف كانت عاقبة المفسدين.

2- أسلوب التعجب، أو أسلوب الاستفهام الإنكاري:

استُخدم هذا الأسلوب بشأن الفواحش والآثام والعادات القبيحة الرائجة بين النـــاس، المثال على ذلك: ما قاله لوط لقومه: أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العـــالمين؟ وفي النهي عن الخمر والميسر: أفلستم منتهون؟

III) السنن الإنسانيّة:

[1]- الأنعام/111.

إنّ هدف القصص القرآني ورسالتها، عرض الصورة الأصليّة والصـحيحة للنـواميس وللسنن الإنسانيّة:

1- دور الأنبياء التربوي في المحيط الاجتماعيّ:

إنّ الأنبياء يصنعون المجتمع بفكرهم السامي، ويوفّقون بين حاجات الأمم ومقتضـيات الزمان، إعمار المجتمعات وإصلاحها[1]، فلولا الأنبياء لما استطاعت الشعوب أنْ تتخلّص من أسرِ الماضي وأن تضع أملها في المستقبل[2]؛ على أساس دعوات الأنبياء تتوحّد الشعوب وتتخلى عن خلافاتها الشخصيّة والسياسيّة والاجتماعيّة من أجل هذه الوحدة. فالأنبياء أبناء محيطهم، مـن العرق نفسه، يتكلمون اللغة نفسها، ويعيشون بين أهلهم وإخوانهم، يتألمون لألمهم؛ لكـنّهم في الوقت عينه لم يخضعوا لسننهم وآدابهم السيّئة. ظلّوا حتى اللّحظة التي اختارهم فيهـا الله عـزّ وجلّ ظاهريًّا كغيرهم من الناس، لكنّهم، لم يرتكبوا مثلهم الآثام، و لم يسيروا في طريق الكفـر والإلحاد، مثلهم، وهذا يشير إلى تأثير الأنبياء في محيطهم والعمل على تغييره نحو الأفضل، دون أن يتأثروا هم سلبًا بظروف المحيط.

انقسام المجتمع إلى مؤمنين و كافرين:

الانقسام في المجتمع مصدره التعصّب، وحين يبدأ الأنبياء بتبليغ دعوة ربّهم، يتصدى لهم فريقٌ من الناس، فينقسم حينئذ المجتمع إلى فريقين: الكافرون والمؤمنون، علمًـا أنّ الكـافرين يعلمون حق العلم أنّ دعوة النبيّ حق، ولكنّهم يصرون على العناد:

---

[1]- هود/112

[2]- نوح/2- 4.

"كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"[1] (213) .

وهذا الاختلاف والإنقسام ناموس اجتماعيّ، لا عجب فيه: "ولو شاء ربّك لجعل الناس أمّة واحدة ولا يزالون مختلفين"[2].

كما أنّ وجود المعاندين للنبيّ والذين يتصدّون لدعوته سنّة طبيعيّة لا تتغيّر:

"وكذلك جعلنا لكلّ نبيٍّ عدوًّا من المجرمين وكفى بربّك هاديًا ونصيرًا"[3] هذا الانقسام ليس أمرًا غريبًا، فحتى في العائلة الواحدة يظهر أثر هذا الانقسام: امرأة فرعون، التي ناجت ربّها أن يبني لها بيتًا في الجنّة وينجّيها من فرعون وعمله ومن القوم الظالمين[4]، والذي أنكر البعث وعاند والديه، وهما يستغيثان الله، ويقولان إنّ وعد الله حقّ، فيجيبهم ما هذا إلا أساطير الأوّلين[5].

أما العوامل الأساسيّة وراء هذا الموقف فهي:

أولاً: الوضع المعيشي والاقتصادي:

إنّ حبّ الدنيا وحياة الترف، من أهم العوامل في مخالفة بعض الناس للأنبياء، ومحاربتهم لهم:

---

[1]- البقرة/213.
[2]- هود/118؛ المائدة/48؛ النحل/93.
[3]- الفرقان/31؛ الأنعام/122.
[4]- التحريم/11.
[5]- الأحقاف/17.

"وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (34) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ"[1] (35) .

إنّ حدّة المواجهة بين النبيّ والمعاندين، تصل إلى حدّ أنّ هؤلاء المترفين ينفقون أمــوالهم ليصدّوا عن سبيل الله، لتكون عليهم حسرةً، على الرغم من أنّ الغلبة في النهاية للدعوة الإلهيّة، وللكافرين جهنّم يُحشرون فيها[2].

في حين أنّ الفقراء في المجتمعات والطبقات الدنيا، هم الذين يؤمنون أولاً، ويستجيبون لدعوات الأنبياء ويصبحون من أنصارهم والمدافعين عنهم:

"قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَــالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ"[3] (76) .

إنّ جذور الحرب التي تستعر باستمرار بين الفقر والغنا هي في هذه الخصلة، لهذا السبب كان الأعيان هم الذين يحاربون الأنبياء والفقراء هم الذين يناصرونهم:

"وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ"[4] (37)

الشعراء: **"قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ"[5] (111)**.

ولقد عبر القرآن عن جذر هذا الصراع، فالأثرياء الذين يعيشون في اللـــذة والنعـــيم، ويستفيدون من الوضع القائم، لن يسرّهم أن يتغيّر هذا الوضع وتتعرّض مصالحهم للخطر:

---

[1]- سبأ/34 و35.
[2]- الأنفال/36.
[3]- الأعراف/75 و76.
[4]- هود/37.
[5]- الشعراء/111.

الزخرف: "بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآَبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (29) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ"[1] (30).

فالثروة مصدر الاستكبار "كلاّ إنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى"[2] لكنّ الفقر يمهّد أرضيّة قبول الدعوة، إذا سمح الأغنياء للفقراء بذلك:

"وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ"[3] (21).

ثانياً: الأوضاع الثقافيّة والفكريّة:

الأشخاص الذين لديهم من قبل استعدادات فكريّة وثقافيّة، وللدين مكانة صادقة في قلوبهم، ولا يقضون حياتهم في الغفلة، هم أكثر استعدادًا لقبول دعوة الأنبياء:

"تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5) لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آَبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (6) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (9) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (10) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ"[4] (11) .

لهذا السبب وجّه القرآن اللّوم إلى أهل الكتاب أكثر من غيرهم، لأنّ المفترض أن يكون استعدادهم لتقبّل دعوة الحقّ أكبر من استعداد الآخرين:

---

[1]- الزخرف/29 و30.
[2]- العلق/6 و7
[3]- إبراهيم/21.
[4]- يسن/5 ← 11.

"يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (70) "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ"[1] (71).

ثالثاً: سلطة الآباء والسنن الماضية:

إنّ ماضي الأمّة، أيّ أمّة، إذا كان مشرقًا إيجابيًّا يكون سندًا لها قويًّا ومفيدًا، أما إذا كان مظلمًا وسلبيًّا، فيشكّل عبئًا ثقيلاً عليها، يقيّدها ويمنعها من الحركة. ومن العوامل التي تؤدي إلى معارضة دعوة الأنبياء في المجتمع، هو أنّ مجموعة تكون خاضعة لسلطة الآباء وعاداتهم وسننهم، ولا تستطيع الفكاك منها، قال قوم إبراهيم:

"قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ"[2] (74)

وقال قوم هود:

"هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (137) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ"[3] (138)

وقال قوم موسى:

"قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ"[4] (78)

وقال قوم محمّد:

المائدة: **"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ"[5] (104)**

---

[1]- آل عمران/70 و71.
[2]- الشعراء/74.
[3]- الشعراء/137 و138.
[4]- يونس/78.
[5]- المائدة/104

رابعاً: ثبات عقيدة المؤمنين:

من سار في طريق الإيمان، يجد نفسه عاطفيًّا وروحيًّا في فضاء يتّضح له فيه أنّ كلّ فكر مخالف هو غير صحيح وباطل، فالارتباط الفكريّ بين المؤمن أيّ مؤمن وفكره أيّا كان، هو ارتباط عاطفيّ:

"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ"[1] (165)

إنّ وجود هذا الجوّ الروحي، مؤدّاه أنّ المؤمن بعقيدة ما، يصرّ على عقيدته، ويعدّ المخالف لها ضالاًّ:

"وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ"[2] (113)

كان قوم نوح يعتقدون من صميم قلوبهم أنّهم على الحق وأنّ نوحًا قد ضلّ:

"قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (60) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ"[3] (61)

هذا التشبّث بالعقيدة، هو الذي يمنح المؤمنين وحدة الموقف، ويجمع العواطف والسلائق المتنوّعة حول مدار واحد. فسرّ قوّة أي قوم كامن في وحدهم العقائديّة والفكريّة، فإذا ما

---

[1]- البقرة/165.
[2]- البقرة/113.
[3]- الأعراف/60 و61.

ابتعدوا عن هذا المصدر، يلحقون الضرر بوحدتهم الوطنية، لذلك حين يأتي فرد بفكر جديد يثير غضب القوم وسوء ظنّهم وتشاؤمهم:

"وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ"[1] (47)

وتنطبق هذه القاعدة على جميع الأنبياء، فما من نبيّ نجا من استهزاء قومه وسخريَتهم:

"وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (10) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ"[2] (11)

لقد ووجه الأنبياء بالتهديد بالرجم والسجن والتشريد، والحرق والقتل، وتاليًا يُنَفَّذ التهديد عمليًّا، وكلّ نبيّ من الأنبياء تعرّض إلى تهديد من هذا النوع أو أكثر.

لهذا السبب فإنّ دعوة الأنبياء، كانت ترتبط دائمًا برباط ما مع الماضي، كي لا يعدّها الناس إذا ما حصلت دفعة واحدةً، بدعة ويهربوا منها...

في المقابل، تحمّل الأنبياء الأذى بكثير من الصبر، وتدرّجوا في إبلاغ رسالتهم، ليتخلّى الناس تدريجيًّا عن أفكارهم السابقة، ويستبدلوا بها الفكر التوحيديّ.

<u>تفاؤل الأنبياء وأملهم بالمستقبل:</u>

---

[1]- النمل/45 ← 47.
[2]- الحجر/10 و11

كان الأنبياء يؤمنون إيمانًا مطلقًا بصواب الطريق الذي يسلكون، و لم يساورهم الشك مطلقًا في أنّهم منتصرون في النهاية، وكان الانتصار بالنسبة إليهم هو العمل بمهمّة الإنذار والتبشير، وكان وعد الله يضيء في أرواحهم سراج الرسالة:

"ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ"[1] (103)

حتى وإن كان الأذى والضغط، يثير ضيقهم أحيانًا وغضبهم، لكنّ الأمل بالمستقبل والتطلع إلى لطف الله هو الذي يُنجّيهم:

"وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ"[2] (88)

وأحيانًا، وهم في غمرة اليأس، يرسل الله عزّ وجلّ إليهم إشارات الرحمة والنصر، ليزداد الأمل في قلوبهم، ولكي لا يحسّوا في أحلك الظروف أنّهم وحدهم:

"حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ"[3] (110)

من هنا فإنّ القصص التي جاءت في القرآن تَروي أحاديث الشعوب السابقة، كانت من العوامل النفسيّة المهمّة التي خفّفت الضغط الروحي عن نبيّنا (ص). لأنّه كان يرى بوضوح ثمار نصرة الله عزّ وجلّ ورحمته للرسل السابقين. كانت تجارب الانتصارات المعنويّة التي حققها الأنبياء السابقون، داعمًا كبيرًا لمحمد (ص) لمتابعة طريق تبليغ الرسالة.

---

[1]- يونس/103.
[2]- الأنبياء/87 و88.
[3]- يوسف/110

المعجزة:

1- لون القصّة في ضوء المعجزة:

المعجزات من الظواهر البارزة والواضحة في القصص القرآني، ومن الواضح أنّ هذه الحوادث غير العاديّة، لا تنبع من حكمة الإنسان وتدبيره، وإنّما تنبع فقط من إرادة الله وتدبيره، دخول هذه الظاهرة المفاجىء في ساحة القصّة، يلقي أشعته على كلّ الأمور الأخرى، ويلوّن الحادثة بلونٍ مختلف.

حين تمكن موسى وأتباعه من الفرار من قبضة فرعون وجنوده، وجدوا أنفسهم على ضفّة النيل والماء من أمامهم والجيش الجرّار وراءهم: عند هذه النقطة من القصّة يتبادر إلى ذهن المخاطب فكرتان: إما استسلام موسى وأتباعه، وإما موهم وإبادهم عن بكرة أبيهم. لكنّ القرآن الذي رفع الحجب عن هذه المسألة في أكثر من مكان[1]، سجّل للقصّة نهاية غير عاديّة: إنشقاق البحر ونجاة موسى وأتباعه، وغرق فرعون وجنوده: هذه النهاية غير المتوقّعة وغير المنتظرة، لا تتناسب والحسابات العاديّة، ممّا حدا بفرعون أن يعلن وهو في حالة الغرق أنّه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، وأنّه من المسلمين[2] .

2- السيطرة على أحاسيس المخاطب ووجدانه:

بروز القوى الغيبيّة وظهور المعجزات في القصص القرآني، يسيطر على أحاسيس المخاطَب ووجدانه بشكل واسع عجيب، وهذا الشيء نفسه لا يحدث بالنسبة إلى القصص العاديّة، لأنّ القاصّ العاديّ، حتى وإن استطاع أن يبدع مثل هذه الأحداث، فإنّ المخاطَب

---

[1]- الدخان/22 ← 24؛ الشعراء/59- 66؛ طه/76- 77.
[2]- يونس/90.

سينظر إليه حينئذ بعين الشكّ والريبة، فتحلّ حينئذ الواقعةُ التي لا تصدّق والعجيبةُ بوحدة القصّة وتشوّش ذهن القارىء، الذي لا يصدّقها ويشعر أنّها فرضت عليه فرضًا وأُقحمت في القصّة إقحامًا، ولم تفعل القصّة القرآنية سوى إعادة صياغتها وإعادة تظهيرها، وليس ابتداعها وتخيّلها.

القدر:

مفهوم القدر:

تقع الحوادث والشخصيّات في القصص القرآني في مجال القدر؛ القدر الذي تكلمت عليه المعارف الإسلاميّة، فالقدر في الثقافة الإسلاميّة ليس شبحًا أو وهمًا، وإنّما هو حاضر خلف الأشخاص والأشياء، وله دور مباشر في خلق الأحداث. القدر قوّة مخفيّة، كامنة في كيان الوجود، ولا يطّلع الناس عليها إلا بعد وقوع الحوادث، ولا يستطيعون بحساباتهم العاديّة أن يدركوا أسبابها وعللها. وإنّما فقط يتساءلون عن أسباب حدوث ما لا يفهمون أسبابه، فإن لم يتوصّلوا إلى الإجابة، نسبوا الأمر إلى القدر.

إنّ كلّ ما يزيد من سعة إدراك البشر وعلمهم، يضيّق مجال القدر، فموسى على سبيل المثال، سافر بصحبة العبد الصالح شرط أن لا يسأله عن شيء حتى يُحدث له منه ذكرًا، ولما رأى موسى أنَّ العبد الصالح خرق السفينة، ثم قتل الغلام، وأقام الجدار دون أن يتقاضى عليه أجرًا في القرية التي أبى أهلها أن يُضيفوهما، كان يسأله في كلّ مرّة منكِرًا عمله، فيجيبه العبد

الصالح: أ لم أقل لك إنّك لن تستطيع معي صبرًا؟؛ في هذه القصّة سار موسى في مدار الوقائع العاديّة، والعبد الصالح في العالم الذي لم تنفتح رموزه وأسراره أمام موسى. ولما أنبأه العبد الصالح بتأويل ما لم يفهمه، أسف على ما بدر منه وكان الفراق بينهما[1]. موسى مثلُه مثلُ الإنسان الواقعيّ الذي لا يدرك ما وراء دائرة الإدراك والعلم البشريّين، يسأل عن الأمور التي لا يفهمها ويستنكرها.

القدر مَثَلُه كمَثَل العجلة الكبيرة التي تدور دون توقّف، ومن خلال حركتها تدور العجلات المسنّنة الصغرى، الناظر إلى المشهد من الخارج تواجهه حركتان: حركة العجلة الكبرى، التي تتحرك في مسار واحد منتظم، وحركة العجلات المسنّنة الصغرى، التي تدور كلّ منها في مسارها الخاص، وتبدو حركاتها غير متناسقة وغير متناغمة، لكنّ الخبير الذي يعلم سرّ هذه الآلة، يرى أنّ جميع الأجزاء تتحرك بتناغم وباتجاه واحد وأسلوب واحد، ولا يشاهد مطلقًا أيّ تناقض في حركتها:

"الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ"[2] (4).

الإنسان في حدود علمنا، الموجود الوحيد الذي يملك الإدراك والإرداة من بين مخلوقات الله، فيتحرك بمقتضى حركة العجلة الدوّارة الكبيرة وبحسب نظامها، بإرادته وبشعوره، وليس لديه الأجوبة عن الحركة الكليّة وأسرارها، مَثَلُه كمَثَل موسى الذي لم يجد لديه أجوبة على أفعال العبد الصالح.

---

[1]- الكهف/65 ← 82.
[2]- الملك/3 و4.

2- موقف القصص القرآني من موضوع القدر:

في القصص القرآني كلّ شيء يجري وفق العادة الطبيعيّة، إلا حين يُجري الله معجزة في مجرى من مجاري الحياة. القدر لا دور له محدّد في خلق الحوادث، وإنّما معظم الحوادث تقع في الوعاء والفضاء العاديّين، لكنّ الناس يختلفون تجاه الحوادث بعد وقوعها: المؤمنون والمنكرون مواقفهم مختلفة: المؤمنون يشكرون الله في كلّ الأحوال، وبرضون بما أصابهم، والمنكرون يواجهون البلاء بعدم الرضى (أكثر الناس لا يشكرون)؛ يوسف في السجن لا ييأس من رحمة الله، وإنّما هو دائم الشكر له، ويعقوب على الرغم من فجيعته يتكلّم دائمًا على الصبر الجميل[1]

الصراع والنضال:

دور الصراع:

ليست "الحركة" التي هي أساس الوجود، سوى صراع الكائنات في هذا العالم من أجل الحياة، ومن أجل الحياة يقضي البعض على حياة غيرهم، والبعض يفنى في الآخرين، وقسم من الناس يرافقون الآخرين ويتعايشون معهم.

في القصص القرآني التي هي انعكاس صادق للوجود، للصراع وللنضال دور بنيويّ. تصوّر هذه القصص صراع القوى والأفراد، لتعبيد طرق الحياة. حين نمعن النظر في هذه الساحات والوجوه نجد أنّ محصّلة هذا الصراع ما هي إلا "صراع بين الحقّ والباطل". وتعرض القصّة القرآنية فريقيْ الخير والشر كليهما بكلّ إمكانياتهما وقواهما في ميادين الحياة، حيث يكون النصر المؤزّر في النهاية للخير، والهزيمة تحيق بالباطل وأهله.

---

[1]- يوسف/18 و83.

"بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ"[1] (18)

وفي أثناء هذا الصراع، نلاحظ فرْقًا واضحًا بين الأمم السابقة والأمة الإسلاميّة، في قصص الأنبياء من نوح إلى عيسى، يُترك الأنبياء وحدهم في مواجهة قوى الشر والباطل، في حين أنّ اتباعهم يتحركون على الضفاف ولا دور فاعلاً لهم في هذا الصراع.

"وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ"[2] (21).

لكن بالنسبة إلى الأمة الإسلاميّة، الجهاد فريضةٌ على جميع المسلمين والآيات القرآنيّة العديدة تأمر النبيّ والمؤمنين معًا أن يؤدّوا هذه الفريضة العامّة. ومن خصوصيّات الدعوة الإسلاميّة، أنّها تعدّ النضال والتضحية في سبيل الأهداف المقدّسة عملاً ساميًا وفرضًا واجبًا، وهذا ما أنتج على مدى العصور مناضلين غيّورين يعملون من أجل إصلاح الأمة.

الصراع بين جبهتيْ الخير والشر:

في القصّة القرآنية تصوير للصراع الدائم بين قوى الخير وقوى الشرّ، بين الإيمان وبين الكفر، وحول هذا المحور تتشكل الدعوات والجهود جميعًا.

ففي قصّة نوح التي هي زمانيًّا من أوائل القصص القرآني، وتكرّرت في كتاب الله أكثر من مرّة، يدور الكلام باستمرار على الدعوة لعبادة الله الواحد. وكانت هذه الدعوة تواجَه دائمًا بالإنكار والعناد والرفض، ووصل الأمر بالكفّار أن هدّدوا نوحًا بالرّجم. إنّ التأكيد على الإيمان والكفر، لا يعني أنّ القرآن أهمل وجوه الخير والشرّ الأخرى، لكنْ لأنّ الإيمان عصارة

---

[1]- الأنبياء/18.
[2]- يس/20 و21.

جميع الخيرات، والكفر خلاصة جميع الشرور، إنّ هذا الصراع المستمر بين الإيمان والكفــــر، إذا كان يثير الغبار في الظاهر وينشر صيحات الحرب، إلا أنّه المصفاةُ التي تمحو الشرور والآثام عن وجه العالم، وتبرز الجمال والطهر. كأ لم المخاض الذي ينتج مولودًا جديدًا.

ساحات الصراع:

وأمّا ساحات الصراع الدائم هذا، فقد حدّدها القصص القرآنيّة على النحو التالي:

1- ساحة النفس:

أهمّ أنواع الجهاد، معركة تجري في داخل الإنسان. يصوّر الإنسان جهاد النفس هذا في قصّة صاحب الجنّتين، الذي أصيب بالغرور والأنانيّة حين رأى جمال جنّتيْه وعظمتهما وظــنّ أنّهما لن تبيدا أبدًا، يواجهه صاحبه: صوت الإنسان الحقّ.

"قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًـــا (37) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (38) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَــاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (39) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِــنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَــوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا"[1] (41)

ومن ثمّ تتمزّق غشاوة الوهم وتنتصر الحقيقة:

[1]- الكهف/37 ← 41.

"وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (42) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا"[1] (43)

2- مواجهة الإنسان لأخيه الإنسان:

في قصّة إبني آدم تصوير للصراع بين إنسانين أحدهما على الحق والآخر على الباطل:

"وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ"[2] (31)

كان الدافع إلى الاعتداء هو الحسد، لم يتكلّم القرآن على جذور هذا الحسد، ولا على سبب عدم تقبّل قربان أحد الأخوين. الأخ الذي يرمز إلى قوى الباطل، هدّد أخاه بالقتل، أمّا الأخ الذي يمثل قوى الحقّ فقد ردّ على أخيه بلطف، و لم يتعدّ حدود الأدب ومخافة الله. وحين اضطر أن يختار، فضّل أن يكون المقتول لا القاتل والمظلوم لا الظالم، وبعد حدوث القتل، ظهر ندم الظالم، ووضعت القاعدة انتصار الحقّ محصّلةً نهائيّة.

---

[1]- الكهف/42 و43

[2]- المائدة/27 ←31.

"وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ" (31) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ"[1] (32)

آثار القصص القرآني:

فضلاً عن الرسائل والعبر التي مرّ ذكرها، للقصص القرآني آثار ونتائج أيضًا.

ومايؤيّد وجود هذه الآثار، أنّ القصص معًا بشكل عامّ وكلّ قصّة على حدّة بصورة عرضية، تترك في الذهن تأثيرات خاصّة. نشير أولاً إلى التأثير الأصلي للقصّة القرآنيّة:

1– التخفيف من حدة الضغط العاطفي الشديد على نبي الإسلام وعلى المؤمنين:

لقد ضاق صدر النبيّ بمكر المشركين وخيانتهم وخبثهم: "ولقد نعلم أنّك يضيق صدرك بما يقولون"[2]، ولقد خاطب القرآن النبيّ مرّات لإلقاء السكينة الروحيّة في قلبه:

1- المائدة/27 ← 32.
2- الحجر/97.

"فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ"[1] (49)

"لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ"[2] (3)

"فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ"[3] (12)

وقد صرّح القرآن نفسه بأن ما يقصّه على الرسول من أبناء الرسل إنّما هو ليثبّت فؤاد الرسول، وموعظة وذكرى للمؤمنين[4]. وفي قصّة موسى يقول القرآن باثّاً الأمل في قلب الرسول وقلوب المؤمنين وتخفيف الضغط النفسي عليهم:

"نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ"[5] (6)

مجموعة قصص سورة الأنبياء وبعض قصص سورة الصافات تؤدي هذه الوظيفة، لكن قصّة نوح هي أفضل النماذج في هذا الباب لوجود العناصر المشتركة والأساليب المشتركة التي استخدمها المشركون، والمشقّات المتشابهة التي تحملها نوح ومحمد، حتى الأصنام تحمل الأسماء

---

[1]- القلم/48 و49
[2]- الشعراء/3
[3]- هود/12
[4]- هود/120
[5]- القصص/3 ← 6.

نفسها: سواع ويغوث ويعوق ونسرا، وما من شكّ في أنّ الرسول كان يرى إلى حاله وحال أمّته في مرآة هذه القصّة، وكان يأمل بمستقبل زاهر لدعوته.

التبشير والإنذار:

يلمس المؤمنون والكافرون على حدّ سواء، بأسلوب مجسّد وعيني كليًّا، مظاهرَ رحمة الخالق وانتقامه، وتظهر مشاهد حياة المؤمنين المليئة بالأمل والانتصار، إلى جانب مناظر هلاك الكافرين وتشريدهم، كسيمفونيّة رائعة تستحوذِ على مشاعر المخاطَب، أملاً وتخويفًا.

يظهر ذلك بوضوح في القصص التي وردت في سور الأعراف والشعراء والقمر:

"كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (14) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (15) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (16) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (17) كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (18) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (20) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (21) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (22) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (24) أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (25) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (26) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (27) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (28) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (29) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ

(30) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (31) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ"[1] (32).

قصّة آدم أنموذجًا على غاية القصص القرآنية:

وردت قصّة آدم وإخراجه من الجنة في سبعة مواضع:

في سورة البقرة: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ

---

[1]- القمر/9 - 32.

هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"[1] (39)

في سورة الأعراف: "وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (15) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18) وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (19) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (22) قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ

[1]- البقرة/30 ← 39.

الْخَاسِرِينَ (23) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (24) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ"[1] (25)

في سورة الحجر: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (27) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (31) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (33) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (35) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ"[2] (42).

في سورة الإسراء: "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (62) قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (63) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ

---

[1]- الأعراف/11 ← 25.
[2]- الحجر/26 ← 42.

وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (64) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا"[1] (65)

في سورة الكهف: "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا"[2] (50)

في سورة طه: "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (116) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى"[3] (123)

في سورة ص: "قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (68) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (69) إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (70) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (74) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (76) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (78) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (79) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (80) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (81) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا

---

[1]- الإسراء/61 ← 65.
[2]- الكهف/50
[3]- طه/116 و 123.

عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (84) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ"[1] (85)

نلاحظ أنّ كلّ صورة من الصور تعالج قصّة آدم من زاوية، من هنا ورد ذكر بعض المواقف في بعض الصور دون بعضها الآخر، لكنّ دراسة القصّة تقتضي النظر إلى الصور السبع من منظار واحد، لتكوين نظرة شاملة جامعة، وقد وردت الحوادث بحسب الترتيب التالي:

1- الإخبار عن مخلوق جديد اسمه آدم (مرّة واحدة في سورة البقرة).

2- الإعلان عن المادة التي خلق هذا الموجود منها (مرّتان في الحجر وص).

3- دعوة الله الملائكة ليسجدوا لآدم (سبع مرّات).

4- رفض إبليس أن يسجد لآدم، والسبب الذي دفعه إلى هذا الرفض (7 مرّات).

5- طرد إبليس من الجنّة وإعلان إبليس حربه لتضليل أبناء آدم (7 مرّات).

6- تنبيه آدم ليكون حذرًا من إبليس وحِيله (ثلاث مرّات: البقرة، الأعراف، طه).

7- نهي آدم وحوّاء عن الاقتراب من شجرة معيّنة في الجنّة (مرّتان: البقرة والأعراف).

8- إيقاع أبليس لآدم وحوّاء في شباكه، والأكل من الشجرة المحرّمة (مرّتان: الأعراف وطه).

9- عتاب الله عزّ وجلّ لآدم، وندم آدم، وتاليًا قبول توبته (3 مرّات: البقرة، الأعراف، طه).

هذه العناصر العشرة المهمّة التي تتشكّل منها قصّة آدم، تتوزع في تلك المواضع السبعة، ولكنّها تُعرض في كلّ مرّة بصورة معيّنة. فحيث يكون هنالك تكرار محضْ تتشكّل حلقات

---

[1]- ص/67 ← 85.

الاتّصال، وحيث يصادفنا اختلاف في التعبير، يكون ذلك لغاية ولهدف، هذه الغاية هـي عرض القصّة من زاوية خاصّة، وعرض رسالة القصّة مع التأكيد على هذه الرؤية، لذا يبقى هنالك سؤال أساسيّ:

إلى أيّ حدّ كانت هذه العناصر التي تشكّلت منها قصّة آدم واقعيّة؟ أو ما هي حـدود الواقعيّة في هذه العناصر البارزة في قصّة آدم: المادة التي خلق منـها آدم، ظهـور الحيـاة الإنسانيّة على وجه الأرض، الشجرة التي أكل منها آدم، الجنّة التي كان يعيش فيها آدم... إلى أيّ حدّ هذه العناصر حقيقيّة، وإلى أيّ حدّ هي مثال ورمز؟

1- خلق الأبوين الأولين:

في الرؤية الإسلاميّة، من الواضح أنّ جذور حياة الإنسان المعاصر تعود إلى آدم وحوّاء، وهذان لم يكن لهما أب ولا أم:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"[1] (13)

كذلك فإنّ جميع الأديان السماوية وغير السماوية تعتقد أن هذين الأبوين الأولين، كانا يعيشان في جنّة، وأنّهما طردا منها بسبب ذنب اقترفاه، وهبطا إلى الأرض.

الأساطير[2]:

---

[1]- الحجرات/13.

[2]- مبانى هنرى قصه هاى قرآن، أبو القاسم الحسيني، قم، مركز التحقيقات الإسلامية، 1377ش [1998م] ص 261 وما بعدها.

هذا الأصل الحقيقيّ، تلوّن تدريجيًّا بأوهام البشر ومعتقداتهم، فتشكلت الأساطير، فقد جاء على سبيل المثال في "الأوبانيشاد" كتاب الهندوسيّين المقدّس ما يلي: كان لله جسد كبير، ليستطيع أن يوازي جسدي الرجل والمرأة معًا، فأراد أن يقسم جسده إلى نصفين، فظهر الزوج والزوجة. فالنفس الواحدة كان فيها فراغ، وهذا الفراغ ملأته الزوجة، وبعد ذلك خالط الزوج والزوجة، فتناسل منهما البشر. بعد ذلك تساءلت الزوجة- أيْ تلك التي كانت على الأغلب زوجه الإله- "كيف استطاع بعد أن خلقني من نفسه أن يخالطني؟ يجب أن أخفي نفسي" فاختفت في صورة بقرة. وخرج الزوج في صورة ثور، وخالطها، فولدت ذوات الأربع، وتدريجيًّا خلقت جميع الموجودات.

حين انتهى عملهما نظر الإله إلى الموجودات وأدرك الحقيقة، وقال: "حقًا أنا وهذه الموجودات من نفس واحدة، لأنني أنا الذي خلقتها من نفسي"[1].

تغلغل الأساطير في كتب التفسير:

إنّ أمثال هذه الأساطير، قد وسمت قليلاً أو كثيراً جميع الحقائق التاريخيّة، وخلق كلّ شعب من الشعوب أسطورته عن خلق آدم والحوادث المتعلّقة بها. وكتب التفسير الإسلامية تعجّ بمثل هذه الأوهام المحبوكة، وممّا يؤسف له أنّ الكثير من هذه الخرافات أُلبس ثوب الرواية والحديث، ووجد طريقه إلى كتبنا، وصار الدين بالنسبة إلى البعض يتلخصّ بهذا الكلام، ومن المفيد هنا أن نذكر هذا التحليل القيّم لابن خلدون حول هذا الأمر:

"إنّ علّة هذا الأمر، أنّ العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا أهل علم، وكانت تغلب عليهم البداوة والأميّة، فاشتاقوا كغيرهم من الشعوب أن يتعرّفوا أصل الخلق والوجود، فيمّموا شطر أهل

---

[1]- م. ن، ص. ن، نقلاً عن قصّة الحضارة، ج3، ص 32.

الكتاب... وأهل الكتاب كانوا أولئك اليهود والنصارى الذين يتبعونهم... وحين اعتنق أهل الكتاب الإسلام، ظلّوا- في ما عدا الأحكام الشرعيّة- على علومهم... لذلك فإنّ كتب التفسير مليئة بمرويّاتهم، وبما أنّ هذه الأمور لم تكن من الأحكام العمليّة، لم يتطرّق أحد إلى تعيين صحّتها أو عدم صحّتها"[1].

3- نظرة القرآن العقليّة إلى قصّة خلق آدم:

بالقدر الذي نجد فيه الأساطير الإسرائيليّة المختلَقَة، مناقضة للعقل والتفكير السليمين، نلاحظ أنّ النظرة إلى قصّة الخلق في القرآن الكريم، لا تتعارض مع العلم، ولا مأخذ عليها من هذه الناحية. ومن تتبّع آي الذكر الحكيم نجد بعض الآيات تقول إنّ البشر خلق من الماء[2] أو أنّ آدم خلق من تراب[3]، أو من طين[4]، والطين هو الماء والتراب وليس عنصرًا ثالثًا، الطين صار صلصالاً فحماً مسنونًا (طين يمكن تكييفه بسهولة)، والطين بشتى أنواعه ماء وتراب، فأصل الإنسان الأول ماء وتراب، خلق الله منهما أبا البشر ومنحه الحياة. وهذا لا يعارض مطلقًا ومعطيات العلم الحديث. أمّا التفاصيل التي وردت في كتب التفسير، منقولة عن لسان اليهود أو غيرهم، فلا أساس علميّ لها، وتتناقض مع أهداف النص القرآني[5].

الشجرة المحرّمة:

هذه الشجرة كانت شجرة معيّنة، لأنّ القرآن استخدم اللفظة معرّفةً "هذه الشجرة"، لكنّ القرآن لم يذكر لنا أوصافها، أمّا الأوصاف التي وردت في القرآن على لسان إبليس فلا تتلاءم مع الواقع، وإنّما هي من وساوس إبليس:

---

[1]- مقدمة إبن خلدون، ص 415.
[2]- الفرقان/54.
[3]- آل عمران/59
[4]- الأنعام/2.
[5]- راجع مجمل ما جاء في التفاسير القديمة حول هذا الموضوع.

"فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ"[1] (20)

طه: "فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى"[2] (120)

مع ذلك، عملت كتب التفسير على تعيين نوع هذه الشجرة وأوصافها، فلم يتركوا رطبًا ولا يابسًا إلا ذكروه، منهم من قال إنّها نبتة القمح، ومنهم من قال إنّها داليه العنب، أو شجرة التين، أو شجرة الكافور أو شجرة المعرفة، أو شجرة الخلود. علمًا أنّ أحدًا منهم لم يعتمد على أسس متينة من السنَّة والروايات لدعم أقواله. إنّ القرآن لم يعرّف هذه الشجرة- لكنّها كانت معروفة بالنسبة إلى آدم وحواء- لأنّ نوعها لا يقدّم ولا يؤخّر بالنسبة إلى الهدف من القصّة، وليس لها ميزة عن سائر الشجر؛ وهذا ما يؤكّد أنّ نهي آدم عن الاقتراب من هذه الشجرة، كان يهدف إلى تجربته مقابل وساوس إبليس:

"وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا"[3] (115)

هدف قصّة آدم:

يمكن من خلال هذه المسألة المهمّة أن نفهم أنّ أصل قصّة آدم، لم تأت لتعرفنا كيفيّة خلق الإنسان، وإنّما الهدف المهمّ من ذكر هذا الهبوط، إظهار هذه الرسالة الأخلاقيّة الكبرى:

بحسب ما جاء في القرآن، لا علاقة لقصّة هبوط آدم بالوجود الأوّل للإنسان على هذه الكرة الأرضيّة، الهدف هو القول إنّ الإنسان يمكنه أن يسمو من هذه الشهوة الغريزيّة البدائيّة،

1- الأعراف/20.
2- طه/120
3- طه/115

إلى العلم بأنّ له نفسًا حرّة قادرة على الشك والعصيان. فالهبوط ليس فسادًا أخلاقيًّا، وإنّما هو انتقال بالإنسان من الشعور البسيط نحو أوّل بارقة من الشعور الواعي... الذي هو نوع من اليقظة من سبات الطبيعة.

إنّ القرآن لم يذكر مطلقًا، و لم يصنّف أبدًا الأرض بأنّها ساحة عذاب الإنسان، وسجنٌ لكائن عنصره سيءٌّ، وقد ارتكب الخطيئة الأصليّة.

أوّل معصية بدرت من الإنسان، كانت أوّل عمل حرٍّ قام به. لذلك فإنّ الله عزّ وجلّ قبل توبة آدم، وغفر له، كما ورد في القرآن[1].

الجنّة الأولى:

حول الجنّة التي هبط منها آدم، يجدر بنا القول إنّ عددًا كبيرًا من المفسّرين يعتقدون أنّ هذه الجنّة تقع في ما وراء الحَشر، أيّ أنّها جنّة من الجنات السماويّة التي أعطيت في الآخرة جزاءً للمتقين. يجب أن نعلم أنّ لفظة الجنّة وردت في أماكن عديدة من النصّ القرآني، تعبيرًا عن الجنّة الأرضيّة: مكانًا مكسوًا بالأشجار[2]. من هنا، لا شاهد على أنّ جنّة آدم محصورة في الجنّة السماويّة. كما أنّ لفظة "الهبوط" لا تدلّ على هذا المعنى أيضًا. لأنّه ليس من المحتمّ أن يكون الهبوط من السماء نحو الأرض. في القرآن نفسه وردت عبارة "اهبطوا مصرًا"، من هنا فإنّ بعض المفسّرين كأبي مسلم الأصفهاني والقرطبي، قالا إنّ المراد من الجنّة في قصّة آدم، كان جنّة دنيويّة[3].

يقول إقبال اللاهوري حول هذا الموضوع:

---

[1]- إقبال اللاهوري: تجديد الفكر الديني الإسلامي، ص/99.
[2]- البقرة/265 و266؛ الكهف/32 و33 و39 و40.
[3]- مجمع البيان، ج1، ص 167؛ تفسير القرطبي، ج7، ص 17.

ليس هنالك من سبب يجعلنا نفترض أنّ الجنة في قصّة آدم، كانت هي الجنّة الماورائية التي هبط الإنسان منها إلى الأرض. فبحسب القرآن نفسه، لم يكن الإنسان جاهلاً لهذه الأرض؛ لأنّه يقول: "والله أنبتكم من الأرض نباتًا"، إذًا الجنّة التي ورد ذكرها في هذه القصّة، ليست هي المكان الذي أعدّه للمتّقين الخالدين[1].

كان هدفنا من وراء تحليل قصّة آدم هذه، القول إنّ الواجب العلميّ يقتضي أن نستعين في دراسة القصص القرآني، وكشف أهدافه بالقرآن نفسه، وبما ورد فيه، بالاستعانة بشواهد وقرائن من الآيات الأخرى (من منطلق أنّ القرآن يفسّر بعضُه بعضًا). وإنّ أي لجوء إلى الأساطير المستمدّة من الإنجيل أو التوراة المحرّفة، ومن الخرافات الهنديّة والصينيّة، على الرغم من سيطرتها على آراء المفسّرين المسلمين واحتلالها صفحات من كتب السيرة والحديث، لا ثمرة من ورائها ولا فائدة إلاّ حجب الحقيقة أو احتجابها، وهذا هو العقم بعينه[2].

---

[1]- إقبال اللاهوري، تجديد الفكر الديني، ص 98.
[2]- أبو القاسم الحسيني، م. س. ص 263.